



القبضة الحديدية للدول العظمى

المخابرات وتكنولوجيا التجسس (1 - 4)

بقلم : رائف محمد الويشي

5 مايو 2012

ارتبط التخابر بحياة الإنسان على الأرض ، فالإنسان منذ الخلق الأول حمى نفسه بجمع المعلومات التي تؤمن له البقاء وتبعده عن المخاطر ، ويطلق على عملية " جمع المعلومات " هذه اسم التخابر .. ومع تحول حياة البشر إلى أمم مختلفة ، تكونت لكل أمة جيش قوى لحمايتها ، كان من أهم مقومات تلك الجيوش في عصورها القديمة الحجرية هي توافر أفراد يتصفون بالقوة والشجاعة لينفذوا عملية جمع المعلومات بالدخول - متخفين غالبا - إلى أرض القبائل (الأمم) الأخرى ..

ازدادت الحاجة إلى جمع المعلومات مع تفاقم الأزمات بين الأمم (الدول) المتصارعة ، وارتفعت تلك الحاجة إلى الدرجة القصوى مع التطور المذهل في التكنولوجيا الذي نشهده الآن ، هنا تحولت صفات رجال المخابرات من القوة الجسدية والجرأة إلى نخبة من العباقرة والعلماء الذين يتصفون بالعطاء الصامت والزهدي والهدف الواضح في إعلاء شأن شعوبهم ..

في عالم اليوم أصبح فريق العمل التابع لإدارة المخابرات أشبه بالنوطة التي يقرأ منها قائد الأوركسترا ، وبدونها لن يضمن هذا القائد بقاء فريق العمل - أي كل إدارات الدولة - تحت إيقاع واحد ..

ازدادت احترافية إدارة المخابرات مع التطور التكنولوجي السريع الذي نشهده اليوم وتوسعت مسؤولياتها ، فبالإضافة إلى المهمة الرئيسية الملقاة على عاتقها ، وهي تأمين البلاد داخليا وخارجيا ، تضمنت أيضا مهام أخرى مثل فتح أسواق جديدة للمنتج المحلي وحمايته خارجيا من المنافسة ، نقل أفكار جديدة لتحقيق النمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وحتى العسكري ، المقدر على المحاكاة التصنيعية للمعدات الصناعية (المدنية والعسكرية) ، المقدر على صناعة الأزمات ونقلها إلى داخل البلاد المعادية ..

(أوكلت إلى المخابرات الفرنسية - المكتب الثاني - في عام 1998 مهمة انتصار فريق فرنسا القومي بكأس العالم ضد البرازيل في مباراة النهائي ، كانت تلك الدورة تجرى في فرنسا ، تسلل بعض أعضاء المخابرات الفرنسية قبل المباراة النهائية بيوم إلى المطبخ البرازيلي وتمكنوا من خلط بعض المواد في طعام الفريق البرازيلي ، وهو ما سبب دخول اللاعب الشهير رونالدو في نوبات صرع شديدة ، انتقل الفريق بكامله معه إلى المستشفى ليكون برفقته ، حدث ذلك في صباح المباراة النهائية خرج اللاعب الشهير من المستشفى وهو نصف مريض ليلعب ، ومن الطبيعي أن ينهزم فيها الفريق البرازيلي) ..

بهذا المفهوم الواسع لإدارة المخابرات الحديثة ، نستطيع أن نقول أنها قد أصبحت تشارك بنصيب وافر في الدخل القومي ، فكلما ساهمت إدارة المخابرات في إحراز نصيب جيد في الدخل القومي ، كلما ازدادت أهميتها ..

هناك مدارس عريقة حول العالم متخصصة في إدارة فن المخابرات ، فالمدارس البريطانية والسوفيتية (الروسية) والأمريكية هي أفضل تلك المدارس ، وقد انضمت لهم حديثا المدرسة الصينية وحقت قفزات واسعة ، خاصة على المستويين الاقتصادي والعسكري .. نمر سريعا على بعض هذه المدارس :

مدرسة المخابرات الأمريكية

كانت كل التوقعات التي تجرى في الفترة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ترشح الولايات المتحدة لتلعب دورا قياديا في العالم في مواجهة الإتحاد السوفيتي ، هكذا أدار الرئيس هاري ترومان رأسه إلى إدارة المخابرات الأمريكية كي تتولى المهمة الجديدة الملقاة على عاتقها ..

تتكون المدرسة الأمنية الأمريكية من 16 مؤسسة أمنية ، وأهمها هم ثلاثة : وكالة الأمن القومي ، وكالة المخابرات المركزية ، المباحث الفيدرالية :

وكالة الأمن القومي (The National Security Agency) N.S.A

نشأت تلك المؤسسة الأمنية في 4 نوفمبر 1952 ، مركزها في ولاية ميريلاند ، ويشمل عملها داخل وخارج أمريكا ، ويطلق على هذه الوكالة اسم " الأذن الكبرى " - Big Ear - نظرا لأن عملها الأساسي هو متابعة كافة الاتصالات العالمية وفك الشفرات في العالم ومراقبة البريد الإلكتروني داخل وخارج أمريكا ، بناء على ذلك تمتلك تلك الوكالة عددا كبيرا من الأقمار الصناعية المنتشرة في سماء كل القارات ، وتحت قيادتها أيضا طائرات التجسس والتصنت بكافة أنواعها ..

يقول الكاتب الأمريكي جيمس بامفورد في كتابه " هيئة الأسرار ، وكالة الأمن القومي " أن العاملين داخل مبنى وكالة الأمن القومي في ميريلاند يشكلون أكبر تجمع لمجموعة من علماء الرياضيات واللغة في الولايات المتحدة ، وربما في العالم " ، ويضيف نفس الكاتب في كتاب آخر له يسمى قصر اللغز - Palace Puzzle - أن وكالة الأمن القومي تمتلك 100 مليون وثيقة سنويا من أماكن مختلفة حول العالم ، وأنها تتخلص يوميا من 40 طن من تلك الوثائق ..

هذه الوكالة مسؤولة عن التصنت على كل زعماء العالم في حياتهم الخاصة أو العامة ، سواء كانوا أعداء أو حلفاء .. آخر إحصائية أمريكية لعدد العاملين في تلك الوكالة كانت في عام 1975 ، وتقول أن عددهم في العام المذكور قد وصل إلى 120 ألف موظف ، ولنا أن نتخيل الموقف بعد ما يقرب من أربعة عقود ، وقد تغير خلالها العالم عدة مرات ..

توجد وحدة خاصة داخل تلك الوكالة تتولى فحص بلايين المكالمات التي تسجلها وكالة الأمن القومي حول العالم ، فبفضل التقنية الحديثة تم وضع " قاموس خاص " داخل أجهزة البحث لتعقب المكالمات التي تحتوي على كلمات تبحث عنها الإدارة الأمريكية مثل : إسلام - جهاد - أسامة بن لادن - الصهيونية - القنابل - المتفجرات - ابن تيمية - العدو وبمجرد رصد تلك الكلمات ترسل المكالمات على الفور لوحدة المتابعة والفحص لتقييمها ..

(للتعرف على وجه جديد من أوجه تلك الوكالة ننوه إلى المقال الثاني من دراسة بعنوان " كتابان على مكتب رئيس مصر القادم " لكاتب تلك الدراسة على مدونته) ..

وكالة المخابرات المركزية (Central Intelligence Agency) C.I.A

وهي ثاني أكبر وكالات أمريكا الأمنية أهمية .. نشأت تلك المؤسسة الأمنية في 18 سبتمبر 1947 ، مركزها في ولاية فيرجينيا ، ينصب عملها في خارج أمريكا ، ومن هنا فإن تواجدها بهويات دبلوماسية في سفارات أمريكا أو بهويات وظائفية في شركاتها المنتشرة حول العالم يعد أمرا طبيعيا ..

تقوم تلك الوكالة بالتصنت أيضا كما تفعل الوكالة السابقة ، لكن نشاطها الأساسي هو التسلل إلى مخابرات الدول الأخرى واصطياد عملاء لها من بين أفراد تلك المخابرات ، كما تقوم بتبادل المعلومات الاستخبارية مع الدول الصديقة ..

بلغت ميزانية تلك الوكالة في عام 2011 ما قيمته 35.5 بليون دولار ، ويقدر المراقبون قوة هذه الوكالة بـ 20 ألف موظف محترف في كافة شؤون الحياة ، كما أنهم ينتشرون في كل قارات الدنيا عامة ، ويتمركزون بصفة خاصة في مناطق التوتر (الشرق الأوسط هو الأول في قائمة تلك المناطق) ..

المباحث الفيدرالية (Federal Bureau of Investigation) F.B.I

أنشئت تلك الوكالة في 26 يوليو 1908 ، مركزها هو العاصمة واشنطن ، وهي تخصص في العمل داخل أمريكا لمتابعة الجريمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتتبع وزارة العدل ، لكنها تتعاون مع الوكالتين السابقتين وترسل لهما بالقضايا الخاصة بهما .. يعمل في المباحث الفيدرالية 36 ألف موظف ، وبلغت ميزانيتها في عام 2011 ما قيمته 8 بليون دولار ..

مدرسة المخابرات السوفيتية (الروسية) :

أنشأت المخابرات السوفيتية (K.G.B) بعد شهر من قيام الثورة البلشفية ، كان ذلك تحديدا في 11 ديسمبر 1917 ، وقد كان لهذا

الجهاز المذهل الفضل في نقل الإتحاد السوفيتي من دولة نامية إلى دولة عظمى ، فقد تمكن – على سبيل المثال - من زرع أعضائه داخل المشروع النووي الأمريكي " منهاتن " ، وقبل أن تلقى أمريكا قنبلتها النووية على اليابان في أغسطس 1945 كانت كل أسرار تلك القنبلة في حوزة السوفييت ..

في لقاء يالطا يشبه جزيرة القرم والذي عُقد في فبراير 1945 بين زعماء دول الحلفاء (روزفلت ، ستالين ، تشرشل) ، قال روزفلت لمعاونيه قبل اللقاء بأنه سيلقى بخيط إلى ستالين ، ويريد منهم مراقبته وتحليل رد فعله ، في أثناء الجلسات قال روزفلت لستالين " صديقي ستالين ، إن أمريكا لديها سلاح سيُنهى قريبا تلك الحرب الطويلة في ساعات " .. اعتدل ستالين في جلسته وابتسم وقال له " الرفيق روزفلت ، لا تندش إذا قلت لك أن الإتحاد السوفيتي لديه نفس السلاح " ، ثم غير ستالين مجرى الحديث إلى شأن آخر ..

(قال الزعيم الفرنسي تشارلز ديغول في مذكراته أن اليابان كانت قد أرسلت إشارات كافية إلى الولايات المتحدة تعنى الاستسلام دون شروط ، وأنها ستعلن ذلك بعد أيام ، لكن أمريكا – والكلام ما زال لديغول - أسرعت وألقت بقنبلتها فوق هيروشيما وناجازاكي لإرسال رسالة إلى الإتحاد السوفيتي بأنه قد يكون المستهدف القادم إذا تجاوز مناطقه) ..

كما تمكن هذا الجهاز من زرع عملائه في الكثير من الأجهزة الإنتاجية في أمريكا وبريطانيا وألمانيا الغربية على وجه الخصوص وفي أوروبا الغربية بصفة عامة ، وكان لهم الفضل في نقل كثير من الأسرار الصناعية من هناك إلى الإتحاد السوفيتي ، مثل المحركات النفاثة والرادار .. لقد سبب هذا الجهاز ذعرا داخل تلك الدول ، فقد وجه ضربات كبيرة وعديدة إلى المذهب الرأسمالي ، عندما نجح في تجنيد النخب الفكرية والعسكرية في تلك مؤسسات الدول الغربية ، ونذكر من هؤلاء ما يلي :

1- ريتشارد سودج : صحفي ألماني شهير في ثلاثينات القرن الماضي ، نجح السوفيت في تجنيده وكان على علاقة كبيرة بكثير من القادة النازيين ، أطلق السوفييت عليه لقب الأستاذ لبراعته في نقل أسرار هتلر ، ألقى القبض عليه في عام 1941 وتم إعدامه ، أصدر السوفييت في عام 1965 طابعا باسمه تخليدا له ..

2- جورج بليك : دبلوماسي بريطاني ، عمل في برلين (المحطة الرئيسية للحرب الباردة بين القوتين) وهناك نجح السوفييت في تجنيده لحسابهم .. قبض عليه في عام 1961 وحكم عليه بالسجن 42 عاما ، نجحت المخابرات السوفيتية في تهريبه من السجن ونقلوه إلى الإتحاد السوفيتي ومُنح أعلى الأوسمة ، في عام 1990 أجرى التلفزيون السوفيتي معه لقاء قال فيه أنه نقل إلى السوفيت أسماء 600 عميل يعملون ضدهم ..

3- كريستين كيلر : عارضة أزياء إنجليزية ، نجح الملحق العسكري في لندن بريجين إيفانوف في تجنيدها في عام 1961 ودفع بها لإقامة علاقات غرامية مع وزير الدفاع البريطاني جون برفوميو ، وقد أدى الأمر عند اكتشافه إلى فضيحة كبرى أدت إلى استقالة وزير الدفاع البريطاني ..

4- كيم فيلبي : يعد أشهر جاسوس في التاريخ ، فقد كان من كبار المسؤولين في المخابرات البريطانية في قسم مكافحة نشاط المخابرات السوفيتية ، بل إنه كان مرشحا ليكون وزير المخابرات البريطانية ، وقد جنده السوفييت لحسابهم منذ عام 1933 وأمدتهم بكافة الخطط الإستراتيجية التي وصلت إليها بريطانيا وأمريكا وكذلك أسماء العملاء السوفييت الموالين للغرب ..

بلغت براعة كيم فيلبي إلى أنه استقال من منصبه زهدا في بداية الستينات ، إلا أن رئيس الوزراء البريطاني حينها – هارولد مكميلان – أصر على عودته .. انكشف أمره في عام 1963 وهرب في أعقاب ذلك إلى موسكو عن طريق بيروت ، وهناك مُنح لقب جنرال ووسام لينين ..

كان والد كيم – جون فيلبي - ضابطا في الجيش البريطاني ، إلا أنه اعتزله واعتنق الإسلام ، ولعب دورا هاما في الثورة العربية وفي تكوين شركة أرامكو السعودية ، وأصبح فيما بعد مستشارا للملك السعودي ..

كتب كيم فيلبي كتابا شهيرا هو "حربي الصامتة" وقد طبع منه – ولا يزال – الآلاف من النسخ ، وقد أذهل في كتابه العالم حيث رشحه أغلب المتخصصين ليكون أشهر جاسوس في التاريخ ، لما أحدثه من انقلاب في عالم الجاسوسية ، وقد شرح كيم في كتابه كل خلاصة فكره وكذلك أسباب ولائه للسوفييت وكيف تمكن من الهرب إلى موسكو ، تلك المدينة التي عاش بها حتى وفاته في عام 1988 ..

في 19 أغسطس 1991 تفكك الإتحاد السوفيتي إلى 15 دولة ، وفي 6 نوفمبر 1991 تم تفكيك جهاز الـ K.G.B وتحول اسمه منذ ذلك الحين إلى اسم جديد ، هو وكالة الأمن الروسية F.S.B ..

مخابرات المملكة المتحدة

تأسس جهاز خدمة الاستخبارات السرية S.I.S (Secret Intelligence Service) في عام 1908 ، ويُطلق عليه اختصارا لفظ

M.I.-6 ، ويقع مركزه في مقاطعه فوكسهول في لندن ، وقد بُنيت المدرسة الأمريكية على نفس تصميم المدرسة البريطانية ، ثم تفوقت عليها بسبب ضخامة الإمكانيات الأمريكية.. فالجهاز المماثل لـ F.B.I. في بريطانيا هو جهاز M.I.-5 ، لهذا لن نخوض كثيرا في هذه المدرسة الغربية ..

مدرسة المخابرات الصينية

هو النموذج الثالث في أشهر مدارس المخابرات في العالم ، فقد نشأت بمجهودات ذاتية ، واستخدمت أسلوب التجربة والخطأ حتى وقفت على قدميها وأثبتت وجودها ، وهي ابنة المدرستين العملاقتين البريطانية والسوفيتية (الروسية) لأنها استفادت كثيرا من نجاحات وأخطاء تلك المدرستين ..

المدرسة البريطانية عُرف عنها التوزيع بين الداخل والخارج ، وتبعتها الأمريكية لتشابه المجتمعات .. المدرسة السوفيتية (الروسية) نقلت – كما قلنا – الدولة السوفيتية من مرحلة النمو إلى مصاف الدول العظمى بفضل ما جلبت من مصادر معلومات في كل القطاعات الإنتاجية للدولة ..

المدرسة الصينية تختلف عن تلك المدرستين السابقتين في اعتمادها شبه الكلى على الجاليات الصينية المنتشرة في كل قارات الدنيا ، فقد استغلت الشعور الوطني والموروث التاريخي الكامن في دماء الصينيين في الخارج على الدوام والذي يدعو الفرد إلى التضحية من أجل بقاء المجتمع ..

المدرسة الصينية تختلف أيضا عن المدرستين السابقتين في عدم التركيز على عدة دول معينة ، بل شملت كل دول العالم ، المخابرات الصينية موجودة في كل دول العالم حتى الضعيف منها في أدغال أفريقيا ، فمن ليس لديه تكنولوجيا متطورة يمكن سرقتها ومحاكاتها بالهندسة العكسية ، سيكون لديه شعب استهلاكي يمكن أن يستورد المنتجات الصينية ..

المدرسة الصينية تختلف عن المدرستين السابقتين في عدم اعتمادها على النخب فقط ، بل أيضا على مئات الألوف من الصينيين البسطاء ، فكل جيوش " الهاكرز " الصينيين الذين يدخلون على أجهزة الكمبيوتر العملاقة في وزارات الدفاع وأجهزة الدول الحساسة هم من الفتية العباقرة الصينيين أقل من 18 عاما ، وتاجر " الشنطة " الصيني الذي يذهب إلى أنجولا مثلا أو تشيلي أو فيجي لابد عند عودته أن يمر على ضابط المخابرات الصيني ليقتص له ما تحتاجه أسواق تلك الدول ..

المدرسة الصينية تختلف عن مثيلتها السوفيتية في أنها لا تصدر عقيدتها ، لقد أنهكت الدولة السوفيتية نفسها وأساءت استعمال مواردها في جعل الآخرين شيوخين بإعطائهم هبات مجانية ، مدرسة المخابرات الصينية (مثل حكومتها) لا تريد من الآخرين أن يكونوا شيوخين ، وبالتالي فلا توجد عندها هبات ..

المدرسة الصينية تتشابه مع المدرسة السوفيتية في أنها نقلت بلادها من مرحلة النمو إلى مرحلة التقدم والمنافسة مع أقوى الدول العالمية ..

المدرسة الصينية تتشابه مع المدرسة السوفيتية في الحائط الحديدي الذي تعمل داخله ، وسوف يمر زمن غير قريب حتى نعرف تفاصيل تلك المدرسة الصامته المذهلة في نتائج أعمالها ..

في الحلقة القادمة – إن شاء الله – سنفتح ملفا آخر من ملفات القوة لدى الدول العظمى ، فإلى لقاء ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس – ميزوري – أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com